مجموعة سيرة الرسول ﷺ

(٣)

الوحدة

الطبعة الرابعة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

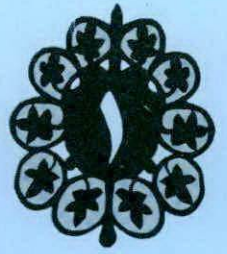

نَادَى فى مَكَّةَ أَرْبَعَةُ رِجَالٍ : يَامَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، يَا أَبْنَاءَ إِبرَاهِيمَ ، طَهِّروا بَيْتَ الله ، وَكَسِّروا مَا أَقمتُمْ فِيهِ مِنْ أَصْنَامٍ وَأَحْجَارٍ صَمَّاءَ ، تَطُوفُونَ بِهَا ، وَتَنْحَرُونَ لَهَا !

يَا قَوْمُ ، التَمِسُوا لَكُمْ دِيناً غَيرَ هٰذا الدِّينِ الَّذِى أَنْتُمْ عَلَيْهِ !

يَا قَوْمُ ، لَقَدْ أَظَلَّكُمْ زَمَانٌ يَظْهَرُ فِيهِ نَبِىٌّ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ، وَرَدَ ذِكْرُهُ فى التَّوْرَاةِ وَالإِنْجيلِ ، وَاسْتَدَلَّ عَلَيْهِ الأَحبَارُ وَالرُّهبَانُ وَالْكُهَّانُ ، فتُوبُوا لأَنْفُسِكُمْ وَارْقُبُوهُ ، تَكُنْ لَكُمُ الدُّنيَا وَثَوَابُ الآخِرَةِ ! !

وَنَظَرَ أَبْنَاءُ قُرَيْشٍ إِلَى هٰؤُلاءِ الرِّجَالِ ، فَإِذَا هُمْ : زَيْدُ بْنُ عُمَرَ بْنِ نُفَيلٍ ، وَوَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ ، وعُثْمَانُ بْنُ الْحَارِثِ ، ، وَعُبَيْدُ بْنُ جَحْشٍ .

كانُوا جَمِيعاً شُيوخاً أَجِلاَّءَ فى قَوْمِهِمْ ، يَعْرِفُ الجَمِيعُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ عَلَى دِينِ أَبِيهِمْ إِبراهِيمَ فَهُمْ يُحرِّمُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمُ الْخَمرَ ، وَلَعِبَ الْمَيْسِرِ ، وَيَتَجَنَّبُونَ عِبادَةَ الأَوْثَانِ ، وَيَفْتَدُونَ الْمَوْءُودَةَ مِنْ مَالِهِمْ : فَإِذَا مَا سَمِعُوا أَنَّ أَبًا يرِيدُ قَتلَ ابنَتِهِ لِفَقْرٍ أَوْ خَشيَةِ عَارٍ ، تَقَدَّمُوا إِلَيْهِ فَكَفَلُوهَا عَنْهُ ، فَإِذَا مَا شَبَّتْ وَرَغِبَ الأَبُ فِيهَا أَعَادُوهَا إِلَيْهِ .

وَلَكِنَّ أَبْنَاءَ قُرَيْشٍ مَا كانُوا لِيَسْتَسِيغُوا أَنْ يَجْهَرَ هٰؤُلاءِ بِمَا جَهَرُوا بِهِ ، وَلا أَنْ يَدْعُوهُمْ لِيَعِيبُوا عَلَيْهِمْ دِيَانَتهُمْ ، وَيُحْقِرُوا مِنْ شَأْنِ أَصْنَامِهِمْ .

فَهٰذِهِ هِيَ عِبادَتُهُمُ الَّتِى شبُّوا عَلَيْهَا ، وَهٰذِهِ هِيَ آلِهَتُهُمُ الَّتِى يَعبُدُونَهَا ، لا يُرِيدُونَ عَنْهَا بَدِيلاً وَلا يَبْغُونَ لَهَا تَغْيِيراً . لِذٰلِكَ صَمُّوا آذَانَهُمْ عَنْ نِدَاءِ هٰؤُلاءِ الشُّيُوخِ ، وَزَادَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ فَانْبَرَوْا يَسُبُّونَهُمْ ، وَيَطْعَنُونَ فِيهِمْ ، وَيُضَيِّقُونَ عَلَيْهِمْ ، وَيَهزَءُونَ بِهِمْ .

وَمَرَّ عَلَى هٰؤُلاءِ الشُّيوخِ وَقْتٌ ، هَاجَرَ مِنْهُمْ مَنْ هَاجَرَ ، وَتَنَصَّرَ مَنْ تَنَصَّرَ ، وَبَقِيَ عَلَى دِينِ إِبرَاهِيمَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ هُوَ زَيْدُ بْنُ عُمَرَ بْنِ نُفَيْلٍ ، يُجَاوِرُ جِدَارَ الْكَعبَةِ ، وَيَقُولُ :

اللّٰهُمَّ لَوْ أَنِّى أَعْلَمُ أَىَّ الوُجُوهِ أَحَبَّ إِلَيْكَ عَبَدْتُكَ بِهِ ، وَلٰكِنِّى لا أَعْلَمُهُ .

ثُمَّ يَخِرُّ عَلَى يَدَيْهِ سَاجِداً .

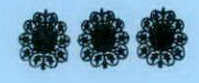

هَزِئَتْ قُرَيْشٌ مِنْ شُيوخِها الَّذِينَ جَهَرُوا بِرَأْيِهِمْ ، وَكَشَفُوا عَنْ عَقِيدَتِهِمْ ، وَرَمَتْهُمْ بِكُلِّ مَعِيبَةٍ ، وَأَلْصَقَتْ بِهِمْ كُلَّ نَقِيصَةٍ . وَلٰكِنَّهَا مَا كَانَتْ تَدْرِى أَنَّ هُنَاكَ شَابًّا مَحْبُوباً مِنْهَا ، عَزِيزاً عَلَيْهَا ، قَرِيباً إِلَى قَلْبِهَا – يَدِينُ هُوَ أَيْضاً بِمَا دَانَ بِهِ هٰؤُلاءِ الشُّيوخُ ، وَإِنْ كَانَ لَمْ يَكْشِفْ وَلَمْ يَجْهَرْ ، بَلِ انْفَرَدَ إِلَى نَفْسِهِ يَتَعَبَّدُ وَيَتَهَجَّدُ ، وَيَبْحَثُ عَنْ كُنْهِ الْحَقِيقَةِ !

وَهُنَاكَ فِى غَارٍ بِجَبَلِ حِرَاءَ ، عَلَى فَرْسَخَيْنِ مِنْ شَمَالِىِّ مَكَّةَ ، كَانَ مُحَمَّدٌ يَنْفَرِدُ إِلَى نَفْسِهِ الأَيَّامَ الطِّوَالَ ، وَاللَّيالِىَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ ، يَسْتَلْهِمُ مَا يَبْغِى مِنَ

الْحَقِيقَةِ ، وَيَنْشُدُ مَا يَوَدُّ مِنَ الْمَعْرِفَةِ .

فَإِذَا مَا جَاءَ شَهْرُ رَمَضَانَ مِنْ كُلِّ سَنَةٍ ، انْقَطَعَ بِهٰذَا الْغَارِ مُمْعِناً فِى التَّأَمُّلِ بَعِيداً عَنْ ضَجَّةِ النَّاسِ ، وَضَوْضَاءِ الْحَيَاةِ ، مُكْتَفِياً بِقَلِيلٍ مِنَ الزَّادِ يَأْتِى بِهِ مَعَهُ ، أَوْ يَحْمِلُهُ أَهْلُهُ إِلَيْهِ !

وَهٰكَذَا يَقْضِى أَيَامَهُ وَلَيَالِيَهُ ، يَسْتَعْرِضُ أَلْوَاحَ مُخَيِّلَتِهِ ، وَيُقَلِّبُ صَفَحَاتِ ذِهْنِهِ ، فَيُحِقُّ الْحَقَّ وَيَمِيلُ إِلَيْهِ ، وَيَزْوَرُّ عَنِ الْخَطَإِ ، وَيَنْأَى بِفِكْرِهِ عَنْهُ .

كَانَ يَبْحَثُ عَنِ الْحَقِيقَةِ فِى مَاهِيَّةِ هٰذَا الْكَوْنِ الَّذِى يَعِيشُ فِيهِ ، وَيُحَاوِلُ أَنْ يَكْشِفَ عَنْهَا فِيمَا غَمَضَ مِنْهُ عَلَيْهِ ، وَيُزِيحَ مِنْ أَمَامِهِ مَا أُسْدِلَ مِنْ أَسْتَارِ خَوَافِيهِ !

وَمَرَّتِ الأَعْوَامُ تَتَتَابَعُ ، وَمُحَمَّدٌ عَلَى حَالِهِ هٰذِهِ : يَذْهَبُ إِلَى الْغَارِ الأَيَّامَ تِلوَ الأَيامِ ، فَإِذَا مَا هَلَّ شَهْرُ رَمَضَانَ ذَهَبَ فَانْقَطَعَ فِيهِ طِوالَ أَيَّامِهِ ! فَإِذَا مَا عَادَ إِلَى مَكَّةَ ، تَوَجَّهَ إِلَى الْكَعْبَةِ ، وَطَافَ بِهَا مَا شَاءَ أَنْ يَطُوفَ .

ثُمَّ يَذْهَبُ إِلَى خَدِيجَةَ وَإِلَى أَوْلادِهِ الَّذِينَ أَنْجَبَتْهُمْ لَهُ ، فَتَسأَلُهُ خَدِيجَةُ

مُشْفِقَةً حَانِيَةً : أَأَنْتَ بِخَيْرٍ يَا مُحَمَّدُ ؟ !

فَيُجِيبُهَا : نَعَمْ ، وَالْحَمْدُ لِلّهِ ، وَيَلْتَفُّ حَوْلَهُ أَوْلاَدُهُ ، فَيَتَعَلَّقُ بِهِ صَغِيرُهُمْ ، وَيُسَائِلُهُ كَبِيرُهُمْ :

أَيْنَ كُنْتَ يَا أَبِى ؟ ! نُرِيدُ أَنْ نَكُونَ مَعَكَ يَا أَبَتِ ! !

فَيُدَاعِبُهُمْ مُحَمَّدٌ ، وَيَحْنُو عَلَيْهِمْ ، وَيَعِدُهُمْ أَنْ يَأْخُذَهُمْ مَعَهُ حَيْثُ يَذْهَبُ لِلعِبادَةِ بَيْنَ فَترَةٍ وَأُخرَى .

وَيُمْضِى مُحَمَّدٌ بَيْنَ آلِهِ فَتَراتٍ سَعِيدةً ، وَلَحَظَاتٍ هَنِيئَةً ، ثُمَّ لا يَلْبثُ أَنْ يَعُودَ إِلَى اعْتِكافِهِ فى غَارِ حِرَاءَ .

وَلٰكِنَّ هٰذِهِ الْفَتَرَاتِ السَّعِيدَةَ ، وَاللَّحَظَاتِ الْهَنِيئَةَ ، لِمُحَمَّدٍ بَيْنَ أَوْلاَدِهِ – لَمْ تَدُمْ طَوِيلاً ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنِ احْتَسَبَ أَوْلادَهُ الذُّكُورَ جَمِيعاً : الوَاحِدَ بَعْدَ الوَاحِدِ : فَمَاتَ الْقَاسِمُ والطَّيبُ وَالطَّاهِرُ . وَذَاقَ مُحَمَّدٌ كَبِيراً مَرَارَةَ فَقْدِ الأَبْنَاءِ ، كَمَا ذَاقَ صَغِيراً مَرَارَةَ فَقْدِ الآباء .

وَبَقِيَتْ لَهُ بَنَاتُهُ : زَينَبُ ، وَرُقَيَّةُ ، وَأُمُّ كُلثُومٍ ، وَفَاطِمَةُ .

وَشَبَّتْ زَينَبُ فَزَوَّجَهَا مِنَ ابْنِ أُخْتِ خَدِيجَةَ : أَبِى الْعَاصِ بْنِ الرَّبِيعِ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ . ثُمَّ زَوَّجَ رُقَيَّةَ وَأُمَّ كُلْثُومٍ مِنْ عُتْبَةَ وَعُتَيْبَةَ ابْنَىْ عَمِّهِ أَبِى لَهَبٍ .

وَلَمْ تَبْقَ بِجانِبِهِ غَيْرُ فَاطِمَةَ الْحَدَثَةِ الصَّغِيرَةِ .

حُرِمَ مُحَمَّدٌ الْبَنِينَ مِنْ أَوْلادِهِ ، وَلٰكِنْ سَاقَتْ الْمَقادِيرُ فى طَرِيقِهِ غُلامَيْنِ كانَا لَهُ بِمَثَابَةِ الوَلَدَيْنِ ، وَكانَ هُوَ لَهُمَا بِمَكانِ الأَبِ !

أَتَتْ خَدِيجَةُ يَوْماً مِنْ زِيارَةٍ لابْنِ أَخِيهَا : حَكِيمِ بْنِ حِزَامِ بْنِ خُوَيْلِدٍ ، وَبِصُحبَتِهَا غُلامٌ وَضِيءٌ ، تَبْدُو عَلَيهِ آثَارُ مِنَ الرَّفَاهَةِ وَالنِّعْمَةِ ، فَسأَلَهَا مُحَمَّدٌ : مَنْ يَكُونُ هٰذَا الْغُلامُ يَا خَدِيجَةُ ؟

قَالَتْ : وَهَبَنِى إِيَّاهُ ابْنُ أَخِى حَكِيمٌ مِنْ رَقِيقٍ أَتَى بِهِ مَعَهُ مِنَ الشَّامِ .

قَالَ مُحَمَّدٌ : وَاللهِ إِنِّى لأَجِدُ فى وَجْهِهِ عُنْصُرَ الْكَرَمِ ، وأَرَى فى مَلامِحِهِ مَخَايِلَ الذَّكاءِ .

قَالَتْ خَدِيجَةُ : يُقَالُ إِنَّهُ ابْنُ نِعْمَةٍ ، أَصَابَتْهُ خَيْلٌ مِنْ بَنِى الْقَيْنِ ابْنِ جِسْرٍ ، فَباعُوهُ بِسُوقِ حِبَاشَةَ .

وَقَالَ مُحَمَّدٌ لِلغُلَامِ ، وَهُوَ يَتَأَمَّلُ وَجْهَهُ فى حَنانٍ وَعَطْفٍ :

مَا اسْمُكَ يَا بُنَىَّ ؟

قَالَ الْفَتَى : اسْمِى زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ .

سَأَلَ مُحَمَّدٌ : وَمَا نَسَبُكَ ؟

قَالَ : أَبِى حَارِثَةُ بْنُ شُرَحْبِيلَ بْنِ كَعْبٍ ، وَأُمِّى سُعْدَى بِنْتُ ثَعْلَبَةَ مِنْ بَنِى مَعْنٍ مِنْ طَيِّئٍ ،

فَقَالَ مُحَمَّدٌ لِزَوْجَتِهِ : يَا خَدِيجَةُ ، أَلاَ وَهَبْتِنِى إِيَّاهُ ؟ !

قَالَتْ : هُوَ لَكَ يَا ابْنَ الْعَمِّ .

فَأَعتَقَ مُحَمَّدٌ الْغُلامَ لِساعَتِهِ ، وَصَيَّرَهُ مِنْهُ بِمَثَابَةِ الابْنِ !

ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى وَالِدَى الْغُلامِ مَنْ يُطَمْئِنُهُمَا عَلَى مَصِيرِ وَلَدِهِمَا !

فَلَمْ يَمْضِ مِنَ الْوَقْتِ غَيرُ قَلِيلٍ حَتَّى أَتَى أَبُو زَيْدٍ وَعَمُّهُ إِلَى مُحَمَّدٍ ، يَسْأَلانِهِ أَنْ يَفْدِيَا الْغُلامَ مِنْهُ .

فَقَالَ مُحَمَّدٌ : أَوَغَيرُ ذٰلِكَ ؟ !

قَالاَ : وَمَا هُوَ ؟ !

قالَ : أَدْعُوهُ ، وَأُخيِّرُهُ ، فَإِنِ اخْتارَكُما فَهُوَ لَكُمَا دُونَ فِدَاءٍ ، وإِنِ اخْتارَنِى فَوالله مَا أَنَا بِالَّذِى أخْتَارُ عَلَى مَنِ اخْتَارَنِى أَحَداً .

فَقَالاَ : قَدْ زِدْتَ عَلَى النَّصَفِ .

وَدَعَا مُحَمَّدٌ بِزَيْدٍ . فَلمَّا جَاءَ سَأَلَهُ : مَنْ هٰذَانِ ؟

قَالَ زَيْدٌ : هٰذَانِ أَبِى وَعَمِّى !

قَالَ مَحَمَّدٌ : قَدْ خَيَّرْتُكَ : إِنْ شِئْتَ ذَهَبْتَ مَعَهُما ، وَإِن شِئْتَ أَقَمتَ مَعِى .

قَالَ الغُلامُ : بَلْ أُقِيمُ مَعَكَ .

فَغَضِبَ حَارِثَةُ ، وَقالَ لِوَلَدِهِ مُعَنِّفاً :

يَا زَيْدُ ، أَتَخْتَارُ الْعُبُودِيَّةَ عَلَى أَبِيكَ وَأُمِّكَ وَبَلَدِكَ وَقَوْمِكَ ؟ !

فَأَجَابَ زَيْدٌ : إِنَّ هٰذَا الرَّجُلَ مَا اتَّخَذَنِى عَبْداً ، وَقَدْ رَأَيْتُ فِيهِ شَيْئاً مَا أَسْتَطِيعُ مَعَهُ أَنْ أُفَارِقَهُ أَبَداً .

عِنْدَئِذٍ أَخَذَ مُحَمَّدٌ بِيَدِ زَيْدٍ ، وَخَرَجَ بِهِ إِلَى الْمَلأِ مِنْ قُرَيشٍ وَقَالَ : اشْهَدُوا أَنَّ هٰذَا ابْنِى وارِثاً وَمَوْرُوثاً !

فَطَابَتْ نَفْسُ حَارِثَةَ ، وَتَرَكَهُ لِمُحَمَّدٍ وَٱنْصَرَفَ .

وَزَامَلَ زَيْداً فى نَفْسِ مُحَمَّدٍ ، وَحَظِىَ بِعَطْفِهِ وَأُبُوَّتِهِ ابْنُ عَمِّهِ عَلِىُّ بْن أَبِى طَالِبٍ إِذْ طَلَبَهُ مُحَمَّدٌ مِنْ عَمِّهِ أَبِى طَالِبٍ إِثْرَ سَنَةِ قَحْطٍ مُجْدِبَةٍ شَدِيدَةٍ لِيَكْفُلَهُ عَنْهُ .

لأَنَّ أَبَا طَالِبٍ كانَ كَثِيرَ الأَوْلاَدِ ، رَقِيقَ الْحَالِ ، يُعَانِى عُسْراً ، وَيَشْكُو شِدَّةً ، زَادَتْهُا عَلَيْهِ ضِيقاً مَا أَتَى عَلَى مَكَّةَ مِنْ سَنَةٍ مُجْدِبَةٍ مُعْسِرَةٍ شَدِيدَةٍ . فَخَاطَبَ مُحَمَّدٌ عَمَّهُ الْعَبَّاسَ ، وَكانَ مِنْ أَيْسَرِ بَنِى هَاشِمٍ ، فى أَنْ يَكْفُلَ كلٌّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا وَلَداً مِنْ أَوْلاَدِ أَبِى طَالِبٍ ، حتَّى تَنْفَرِجَ الأَزْمَةُ ، وَتَزُولَ الشِّدَّةُ ، فَذَهَبا إِلَى أَبِى طالِبٍ ، وَطَلَبا مِنْهُ ذٰلِكَ ، فَقَالَ لَهُمَا : لَكُمَا مَا شِئْتُما !

فَأَخَذَ الْعَبَّاسُ مِنْ أَوْلاَدِ أَبِى طَالِبٍ جَعْفَراً ، وَأَخَذَ مُحَمَّدٌ عَلِيًّا ، فَصَارَ لَهُ مِنْ ذٰلِكَ الحِينِ أَكْرَمَ أَبٍ ، وَصَارَ لَهُ عَلِىٌّ أَبَرَّ وَلَدٍ !

وَقَارَبَ مُحَمَّدٌ أَنْ يَبْلُغَ مِنْ سِنِّهِ الأَرْبَعِينَ !

وَإِذْ ذَاكَ خَطَا نَحوَ الْحَقِيقَةِ الَّتِى بَحَثَ عَنْهَا طَوِيلاً ، وَنَقَّبَ عَنْهَا ، وَنَشَدَهَا مُنْذُ صِبَاهُ وَطُولَ سِنِى شَبَابِهِ ! فَقَدْ أَضَاءَتْ هذِهِ السِّنونَ الطَّوِيلَةُ فى الْعِبَادَةِ وَالتَّحَنُّثِ - رُوحَهُ فَصَفَتْ ، وَاهتَدَتْ وَأَرْهَقَتْ نَفْسَهُ فَشَفَّتْ ، وَأُلْهِمَتْ ، وَتَفَتَّحَ قَلْبُهُ فَصَفَا وَوَعَى .

تَبَلَّجَتْ لَهُ الْحَقِيقَةُ فى نَوْمِهِ رُؤْيَا صَادِقَةً ، أَنَارَتْ لَهُ حَالِكاتِ الظَّلاَمِ الَّتِى جَاهَدَ فى اخْتِرَاقِهَا ، وَأَضَاءَتْ لَهُ طَرِيقَ الْحَقِّ وَسَبِيلَ الْهُدَى ! رَأَى فى رُؤْيَاهُ

أَنَّ زُخْرُفَ الْحَيَاةِ وَهْمٌ بَاطِلٌ ، وَأَنَّ نَعِيمَهَا وَتَرَفَهَا عَرَضٌ زَائِلٌ .

وَأَدْرَكَ مَبْلَغَ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ قَوْمُهُ مِنْ بُهْتَانٍ ، وَمَا هَوَوْا إِلَيهِ مِنْ ضَلاَلٍ ، وَمَا حَادُوا عَنِ الطَّرِيقِ السَّوِيِّ الْقَوِيمِ .

عَرَفَ أَنَّ اللهَ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّهُ هُوَ خَالِقُ الْكَونِ بِمَا حَوَى ، وَأَنَّهُ يَجْزِى كُلَّ امْرِئٍ بِعَمَلِهِ : فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ .

كَانَتِ الرُّؤْيا الصَّادِقَةُ تُعَاوِدُ مُحَمَّداً فَتُرِيهِ كلَّ مَا بَحَثَ عَنْهُ ، وَأَرَادَ مَعْرِفَتَهُ ، وَالوُقُوفَ عَلَى كُنْهِهِ وَمَاهِيَّتِهِ ، تَبَلَّجَ أَمَامَ عَينَيْهِ الْحَقُّ ، وَظَهَرَ أَمَامَ نَاظِرَيْهِ البَاطِلُ . فَكَانَ أَنِ امتَلأَ قَلْبُهُ رَاحَةً وَطُمأْنِينَةً وإِيماناً ونُوراً ، كَما امتَلأَ رَوْعَةً وَجَزَعاً وَخِيفَةً وَرُعْباً ! !

لَقَدِ ارتَاحَتْ نَفْسُهُ وَاطْمَأَنَّتْ ، بَعْدَ أَنْ طَالَ بِها الْمَطَافُ وَرَاءَ نُشْدَانِ الحَقِيقَةِ . وَلٰكِنْ جَزِعَتْ نَفْسُهُ ، وَارتَاعَتْ عَلَى قَوْمِهِ لِمَا أَظْهَرَتْهُ عَلَيْهِ هٰذِهِ الْحَقِيقَةُ .

لَقَدْ هَدَاهُ اللهُ إِلَيهِ ! وَأَرْشَدَهُ إِلَى الطَّرِيقِ الَّذى يَسْلُكُهُ مَنْ رَغِبَ فى رِضَاهُ ، وَطَلَبَ رَحْمَتَهُ ، وَأَرَادَ عَفوَهُ .

وَلٰكِنْ ، أَنَّى لِقَوْمِهِ الْمُتَرَدِّينَ فى هَاوِيَةِ الضَّلالِ مَنْ يُرْشِدُهُمْ ! ! وَأَنَّى لَهُمْ مَنْ يُعَرِّفُهُمْ وَيُلْهِمُهُمْ ! !

وَأَلَحَّ التَّفْكِيرُ عَلى مُحَمَّدٍ ، واشتَدَّ بِهِ الْقَلَقُ ، كلَّمَا تَبَلَّجَتِ الرُّؤْيا أَمَامَ عَيْنَيْهِ وَاضِحَةً كَنُورِ الصَّبَاحِ ، تُرِيهِ مَا خَفِىَ عَلَيْهِ ، وَمَا اسْتَتَرَ عَنْهُ . وَأَشْفَقَ مُحَمَّدٌ عَلى نَفْسِهِ ، وَخَافَ عَلَيهَا الاِخْتِلاَطَ ، وخَشِىَ أَنْ يَكُونَ قَدْ مَسَّهُ مَسٌّ مِنَ الجِنِّ الَّتِى كانَتْ تَأْتِى الْكُهَّانَ فتُنْبِئُهُمْ بِمَا صَارَ إِلَيْهَا مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ ، فَرَكَنَ إِلَى امْرأتِهِ خَدِيجَةَ يُفْضِى إِلَيهَا بِأَمْرِهِ ، وَيُطْلِعُها عَلى ذَاتِ نَفْسِهِ . فَقالَتْ لَهُ تُطَمْئِنُهُ :

يَا مُحَمَّدُ ، مَا كانَ لِمِثْلِكَ أَنْ يَكُونَ لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِ سَبِيلٌ .

وَهَلَّ رَمَضَانُ مِنْ هٰذِهِ السَّنَةِ ، فَاعْتَكَفَ مُحَمَّدٌ بِغَارِ حِرَاءَ كَعادَتِهِ . يَتَعَبَّدُ وَيَتَحَنَّثُ يَأْتِى إِلَيهِ أَهلُهُ مِنْ حِينٍ إِلَى حِينٍ ، يُزَوِّدُونَهُ بِالزَّادِ ، وَيُطَمْئِنُونَ

قُلُوبَهُمْ عَلَيْهِ . وَيَفِدُ عَلَيْهِ بَعْضُ الْمَسَاكِينِ مِنْ وَقْتٍ لآخَرَ ، فَيَنَالُونَ مِنْهُ الْبِرَّ وَالْخَيْرَ .

وَمرَّتْ أَيَّامٌ مِنْ رَمَضانَ ، وَبَيْنَمَا هُوَ نَائِمٌ بِالْغَارِ فى سَحَرِ لَيْلَةٍ – إِذْ بِمَلَكٍ جَمِيلِ الصُّورَةِ قَدْ تَبَدَّى لَهُ وَبِيَدِهِ صَحِيفَةٌ مِنْ دِيباجٍ ، وَسَمِعَهُ يُخَاطِبُهُ قَائِلاً لَهُ : اقرَأْ . فَأُخِذَ مُحَمَّدٌ وَأَجَابَ : مَا أَقرَأُ .

أَحَسَّ مُحَمَّدٌ أَنَّ الْمَلَكَ يَخْنُقُهُ ، وَيَضْغَطُهُ ضَغْطاً شَدِيداً ، ثُمَّ أَرْسَلَهُ ، وَقَالَ لَهُ : اقرَأْ . فَقَالَ مُحَمَّدٌ : مَا أَقرَأُ .

فَأَحَسَّ مَرَّةً أُخْرَى أَنَّ الْمَلَكَ يَخنُقُهُ ، وَيَضْغَطُهُ ضَغْطاً أَشَدَّ ، ثُمَّ أَرْسَلَهُ ، وَقَالَ لَهُ : اقرَأْ .

فَقَالَ مُحَمَّدٌ ، وَقَدْ خَشِىَ أَنْ يُخنَقَ مَرَّةً ثَالِثَةً ، وَأَنْ يُضْغَطَ ضَغْطاً أَشَدَّ : ماذَا أَقرَأُ ؟ !

قَالَ الْمَلَكُ : اقرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ، خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ، الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ . فَقَرَأَ مُحَمَّدٌ

مَا قَالَهُ لَهُ الْمَلَكُ ، وَقَدْ نُقِشَ فى قَلْبِهِ ، وَطُبِعَ عَلَى صَفْحَةِ فُؤَادِهِ . فَتَرَكَهُ الْمَلَكُ وَانصَرَفَ .

هَبَّ مُحَمَّدٌ قَائِماً ، وَقَدْ تَوَلاَّهُ الْجَزَعُ ، وَتَمَلَّكَهُ الْفَزَعُ ، فَأَخَذَ يَتَلَفَّتُ فى أَرْجَاءِ الْغَارِ فَزَعاً وَرُعْباً ، وَيُسَائِلُ نَفْسَهُ مأْخُوذاً مَبْهُوتاً : مَنِ الَّذِى خاطَبَنِى ؟ ! مَنِ الَّذِى أَقرَأَنِى ؟ !

وَخَرَجَ مِنَ الْغارِ مُسْرِعاً ، وَقَدْ حَسِبَ أَنهُ لَحِقَهُ مَسٌّ مِنَ الْجِنِّ ، وَأَصَابَهُ مَا كانَ يَخْشَى ! وَهَامَ مُحَمَّدٌ بَيْنَ شِعَابِ الْجَبَلِ ، يَرْتَعِدُ فَرَقاً ، يُخَاطِبُ نَفْسَهُ : لَقَدْ تَبَدَّتْ لَهُ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فى نَوْمِهِ ، فأَنارَتْ لَهُ كُلَّ ما غَمَّ عَلَيْهِ ، وَأَوْضَحَتْ لَهُ ما كانَ يُرِيدُ لكِنْ : مَنْ هٰذَا الشَّخْصُ الَّذِى تَمَثَّلَ لَهُ ؟ ! وَمَنِ الَّذِى عُنِىَ بِما أَقرَؤُهُ ؟

وَتَوَسَّطَ مُحَمَّدٌ الْجَبَلَ ، وَفَجْأَةً سَمِعَ صَوْتاً يُنادِيهِ : مُحَمَّدُ !

وَرَفَعَ مُحَمَّدٌ رأْسَهُ مُرَوَّعاً فَزِعاً ، فَرَأَى أَمَامَهُ الْمَلَكَ قَدْ تَمَثَّلَ لَهُ ، فى صُورَةِ رَجُلٍ يُنادِيهِ ! يَا مُحَمَّدُ ، أَنْتَ رَسُولُ اللهِ ، وَأَنا جِبْرِيلُ ، فَزَادَ بِهِ

الرُّعْبُ ، وَاشتَدَّ عَلَيْهِ الْفَزعُ ، وَوَقَفَهُ الْهَلَعُ فَلَمْ يَجِدْ لِنَفْسِهِ مَهْرَباً . فَجَعَلَ يُدِيرُ رأْسَهُ يَمْنَةً وَيَسرَةً يُحاولُ أَنْ يَصْرِفَ عَنْ ناظِرَيْهِ صُورَةَ هٰذَا الشَّخْصِ الَّذِى أَمَامَهُ وَلٰكِنَّهُ كانَ يَراهُ أَينَما وَلَّى وَجْهَهُ ، وَحَيْثُما حَوَّلَهُ !

فَعَالَجَ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ، فَإِذَا هُوَ يَرَاهُ فى كُلِّ مَكانٍ ، وَفى كلِّ جِهةٍ ، وَحَيثُ يُرْسِلُ بَصرَهُ فى آفاقِ السَّماءِ .

وَمَضَى وَقْتٌ طَوِيلٌ ، وَمُحَمَّدٌ يُعانِى مايُعانِى مِنَ الرُّعْبِ ، وَيُقاسِى ما يُقاسِى مِنَ الْخَوفِ وَالْفَرَقِ . وخَدِيجَةُ إِذْ ذاكَ تَبْعَثُ بِرُسُلِها يَلْتَمِسُونَهُ فى الْغارِ فَلاَ يَجِدُونَهُ ، فَيَلتَمِسُونَهُ فى بُيُوتِ أقاربِهِ فَلاَ يَجِدُونَهُ ، وَيَلْتَمِسُونَهُ هُنا وَهُناكَ دُونَ جَدْوى .

وَأَخيراً ، انصرَفَ الْمَلَكُ عَنْ مُحَمَّدٍ ، فَعادَ إِلَى خَدِيجَةَ يَرْتَجِفُ وَيَرْتَعِدُ ، وَيَتَصَبَّبُ عَرَقاً ، وَهُوَ يَقُولُ :

زَمِّلُونِى ! زَمِّلُونِى ! فَزَمَّلَتْهُ خَدِيجَةُ ، وَدَثَّرَتْهُ ، وهِىَ مُشْفِقَةٌ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَهُ مَرَضٌ ، أَوْ نَزَلَتْ بِهِ حُمَّى . فَلَمَّا هَدَأَ قَلِيلاً ، وَانْصَرَفَ عَنْهُ بَعْضُ

الرَّوْعِ ، وَخَفَّتْ عَنْهُ شِدَّةُ الرَجْفَةِ – سَأَلَتْهُ خَدِيجَةُ عَمَّا بِهِ ، وَأَيْنَ كانَ ! !
فَنَظَرَ مُحَمَّدٌ إِلَيْها نَظرَةَ الْمُستَغِيثِ الْمُستَنْجِدِ ، وَقَالَ : يَا خَدِيجةُ ، ما الَّذِى بِى ؟ ! !

ثُمَّ حَدَّثَها بِمَا رَأَى ، وَأَفْضَى إِلَيْها بِخَوْفِهِ مِنْ أَنْ يَكُونَ كاهِناً تَغْشَاهُ الجِنُّ . ولٰكِنَّ خَدِيجَةَ نَظَرَتْ إِلَى مُحَمَّدٍ نَظرَةَ إِجْلالٍ وَإِكْبارٍ ، وَتَبَسَّمَتْ فى وَجْهِهِ تَبَسُّمَ الْمُطْمَئِنِّ الْواثِقِ ، وَقالَتْ لَهُ مُطَمْئِنَةً : أَبْشِرْ يَا ابْنَ عَمِّ واثْبُتْ ، فَوَالَّذِى نَفْسُ خَدِيجَةَ بِيَدِهِ إِنِّى لأَرْجُو أَنْ تَكُونَ نَبِىَّ هٰذِهِ الأُمَّةِ ، واللهِ لا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَداً ، وإِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ ، وتَصْدُقُ الْحَدِيثَ ، وتُؤَدِّى الأَمانَةَ ، وتَحْمِلُ الْكَلَّ ، وتَقْرِى الضَّيْفَ ، وتُعِينُ عَلَى نَوائِبِ الْحَقِّ .

فَأَشَاعَ كَلامُ خَدِيجَةَ فى نَفْسِ مُحَمَّدٍ الْهُدُوءَ والاطْمِئْنانَ ، وبَثَّ فى رُوحِهِ الرَّاحَةَ والاِسْتِبْشارَ ، فَشَكَرَ لَهَا حُسْنَ قَوْلها ، وطِيبَ حَدِيثها ، وأَغْمَضَ عَيْنَيْهِ ، وَنَامَ ، وَقَدِ اسْتَبْشَرَ خَيْراً .

وَفَكَّرَتْ خَدِيجَةُ فِيمَا رَوَى لَهَا مُحَمَّدٌ ، فاسْتَبْشَرَتْ خَيْراً ، ولٰكِنَّها لَمْ

تَستَطِعْ أَنْ تَمْنَعَ نَفْسَها مِنَ الْخَوْفِ عَلَيْهِ ، وَالْخَشيَةِ لِما قَدْ يُصِيبُهُ ، فَرأَتْ أَنْ تَلْجأَ فى ذٰلِكَ إلى ابْنِ عَمِّها : وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ ، وتَستَشِيرَهُ ، لِما تَعْرِفُ مِنْ حِكْمَتِهِ ، ولِمَا تَعْلَمُ مِنْ بَحْثِهِ فى الأَديانِ ، ودِراساتِهِ فِيهَا .

وكانَ وَرَقَةُ بنُ نَوفَلٍ قَدْ تَهوَّدَ ثُمَّ تَنصَّرَ ، ودرَسَ الإِنْجِيلَ ، ونَقَلَ مِنْهُ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ ، فَلَمَّا جاءَتْهُ خَدِيجَةُ تَقُصُّ عَلَيْهِ ما حَدَّثَها بِهِ مُحَمَّدٌ ، وتُخْبِرُهُ بِما رَأى وبِما سَمِعَ ، قالَ : قُدُّوسٌ ، قُدُّوسٌ – أَىْ طاهِرٌ طاهِرٌ . . والَّذِى نَفْسُ وَرَقَةَ بِيَدِهِ لَئِنْ كُنْتِ صَدَقْتِنِى يَا خَدِيجَةُ لَقَدْ جَاءَهُ النَّامُوسُ الأَكْبَرُ الَّذِى كانَ يأْتِى مُوسَى ، وَإِنَّهُ لَنَبِىُّ هٰذِهِ الأُمَّةِ ، فَقُولِى لَهُ ، فَلْيَثْبُتْ .

وَعادَتْ خَدِيجَةُ إِلَى مُحَمَّدٍ ، تُبَشِّرُهُ بِما بَشَّرَها بِهِ وَرَقَةُ بنُ نَوفَلٍ ، فَوَجَدَتْهُ يَرْتَجِفُ ، وَقَدْ تَفَصَّدَ جَبِينُهُ بِالْعَرَقِ ، وَنالَ مِنْهُ الْجَهْدُ ، وَهُوَ يَقرَأُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ :

« يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ، قُمْ فَأَنْذِرْ ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ، وثِيابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجزَ فَاهْجُرْ ، ولاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرْ ، وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ » .

وَنَظَرَتْ خَدِيجَةُ إِلَى مُحَمَّدٍ بِعَطْفٍ وحَنَانٍ وَإِشْفاقٍ ، فَلَمَّا انْتَهَى مِنْ قِرَاءَتِهِ تَقَدَّمَتْ مِنْهُ تَحْنُو عَلَيهِ ، وَتَمْسَحُ رَأْسَهُ ، وَتَسْأَلُهُ : مَاذا رَأَيْتَ ؟ ! وَمَاذَا سَمِعْتَ ؟ ! فَقَالَ :

أَتَانِى جِبْرِيلُ ، وَحَفَّظَنِى مَا قَرَأْتُ .

فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ : أَبْشِرْ .

وَأَخْبَرَتْهُ بِمَا قَالَهُ ابْنُ عَمِّهَا وَرَقَةُ ، وَبِما طَلَبَ مِنْها أَنْ تُبَلِّغَهُ إِيَّاهُ . ثُمَّ أَعْلَنَتْ مُحَمَّداً بِإِسْلَامِهَا ، وَإِيمَانِهَا بِنُبُوَّتِهِ .

وَخَرَجَ مُحَمَّدٌ يَطُوفَ بِالْكَعبَةِ : فَلَقِيَهُ وَرَقَةُ بْنُ نَوفَلٍ فَقَالَ لَهُ : يا بْنَ أَخِى ، أَخْبِرْنى بِمَا رَأَيْتَ .

فَلَمَّا أَخبَرَهُ ، قَالَ : وَالَّذِى نَفسى بِيَدِهِ ، إِنَّكَ لَنَبِىُّ هَذِهِ الأُمَّةِ ، وَقَدْ جَاءَكَ النَّامُوسُ الأَكْبَرُ الَّذِى جَاءَ مُوسَى ، ولَتُكَذَّبَنَّ وَلَتُؤْذَيَنَّ ، وَلَتُخْرَجَنَّ ، ولَتُقَاتَلَنَّ ، وَلَئِنْ أَنا أَدْرَكْتُ ذٰلِكَ الْيَوْمَ لأَنْصُرَنَّ اللهَ نَصْراً يَعْلَمُهُ .

ثُمَّ مَالَ إِلَى رأْسِ مُحَمَّدٍ فَقَبَّلَهُ .

وَانْصَرَفَ مُحَمَّدٌ وَهُوَ يُفَكِّرُ فِى تَبِعَةِ الرِّسَالَةِ الْجَسِيمَةِ الَّتِى أُلْقِيَتْ عَلَى عَاتِقِهِ لِيُبَلِّغَهَا إِلَى قَوْمِهِ وَيُسَائِلُ نَفْسَهُ .

كَيْفَ يَدْعُوهُمْ ؟ وَكَيْفَ يُرْشِدُهُمْ ؟ وَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنْ ضَلَالٍ ، السَّادِرُونَ فِى غَيِّهِمْ ، الْمُقِيمُونَ عَلَى بُهْتَانِهِمْ ، الْمُشْرِكُونَ بِرَبِّهِمْ ، الْمُعَظِّمُونَ لأَصْنَامِهِمْ .

وَانْتَظَرَ مُحَمَّدٌ مَا يَأْتِيهِ بِهِ الوَحْىُ لِيُرْشِدَهُ إِلَى مَا يَفْعَلُ ، وَيَهْدِيَهُ لِمَا يُتَّبَعُ .

وَانْتَظَرَ مُحَمَّدٌ مُعاوَدةَ الْمَلَكِ الَّذِى رآهُ .

وَالَّذِى أَخْبَرَهُ وَرَقَةُ بْنُ نَوفَلٍ أَنهُ النَّامُوسُ الَّذِى أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى ، وَالَّذِى طَمْأَنَتْهُ خَدِيجَةُ بأَنهُ مَلَكٌ وَلَيْسَ شَيْطَانًا .

وَلِكنْ ، طَالَ انْتِظارُهُ : فَجبْرِيلُ لَمْ يأْتِهِ ، وَلَمْ يُوحِ إِليهِ .

شُغِلَ بَالُ مُحَمَّدٍ ، لِمَ لَمْ يأْتِهِ جبْرِيلُ لِيُرْشِدَهُ إِلَى مَا يَفْعَلُ وَيَهْدِيَهُ إِلَى مَا يُتَّبَعُ ؟ ! لِمَ لَمْ يَعُدْ يَزُورُهُ ، وَيَحْمِلُ إِلَيْهِ مِثْلَ مَا كَانَ يَحْمِلُ إِليهِ ؟ ! وَاشْتَدَّ تَفْكِيرُ مُحَمَّدٍ ، وَأَلحَّ عَلَيْهِ الْهَمُّ ، وَاستَبَدَّ بِهِ الْقَلَقُ ، وَشَارَكَتْهُ خَدِيجَةُ إِحْسَاسَهُ

وَشُعُورَهُ : فَأَلَحَّ عَلَيْهَا الْهَمُّ كَمَا أَلَحَّ عَلَيهِ ، وَاسْتَبَدَّ بِهَا الْقَلَقُ كَمَا اسْتَبَدَّ بِهِ ، ولٰكِنَّها غَالَبَتْ نَفْسَهَا ، وَجعَلَتْ تُطَمْئِنُهُ ، وتُهَوِّنُ عَلَيْهِ الأَمرَ .

وَلَمَّا طَالَ الوَقْتُ ، وَخافَتْ خَدِيجَةُ أَلَّا يَتحَقَّقَ لِمُحَمَّدٍ مَا بَشَّرهَا بِهِ وَرَقَةُ ابْنُ نَوفَلٍ . قَالَتْ لِمُحَمَّدٍ : مَا أَرَى إِلَّا أَنَّ رَبَّكَ وَدَّعَكَ وَقَلاكَ يَا مُحَمَّدُ . وَشَقَّ الأَمرُ عَلَى مُحَمَّدٍ ، فَعَادَ إِلَى غَارِ حِرَاءَ ، يَقْضِى فِيهِ أَيَّامَهُ وَلَيَالِيَهُ يَتعبَّدُ وَيَسْأَلُ رَبَّهُ : لِمَ وَدَّعَهُ وَقَلاهُ بَعْدَ أَن اصْطَفَاهُ ؟ !

حَزِنَ مُحَمَّدٌ وَاشتَدَّ بِهِ الْحُزْنُ ، وَضَاقَتْ نَفْسُهُ ، وَاسْتَبَدَّ بِها الضِّيقُ ، فَطَافَ بِشِعَابِ الْجِبَالِ وَصَعِدَ إِلَى رُءُوسِهَا وَوَدَّ لَوْ أَلْقى بِنَفْسِهِ مِنْ أَعَالِيهَا ! ! كَمْ تَعَذَّبَتْ نَفْسُ مُحَمَّدٍ ! ! وَكَمْ قَاسَتْ رُوحُهُ ! ! وَكَمْ كانَ يَتَعَذَّبُ لِانْقِطاعِ الوَحْى عَنْهُ ! ! وَكَمْ كانَتْ تَقْسُو عَلَيْهِ فِكرَةُ أَنَّ الله قَدْ قَلاهُ وَتَرَكَهُ ! !

وَفيما هُوَ يَوْماً بِرَأْسِ حِرَاءَ ، وَقَدِ اشتَدَّ بِهِ الضِّيقُ ، وَقَسَا عَلَيْهِ الْفِكرُ ، يَتَمنَّى الْمَوْتَ وَيَطْلُبُهُ ، صَادِقاً فى سَبِيلِ اللهِ – ظَهَرَ أَمَامَهُ جِبْرِيلُ الْأَمِينُ .

يَا اللهُ ! ! كَمْ أَنْتَ رَحِيمٌ بِعَبْدِكَ الْمُخْلِصِ لَكَ الْمُؤْمِنِ بِكَ ! !

وَارْتَجَفَ مُحَمَّدٌ وَارْتَعَشَ ! وَلَيسَ كَمَا ارتَجَفَ وَارْتَعَشَ عِنْدَ رُؤْيَةِ جِبْرِيلَ أَوَّلَ مَرَّةٍ خَوْفاً وَرُعْباً . بَلِ ارتَجَفَ فَرَحاً ! وَارتَعَشَ ابْتِهاجاً !

وَنَزَلَ جِبْرِيلُ عَلَى مُحَمَّدٍ بِرِسَالَةِ رَبِّهِ إِلَيهِ :

وَالضُّحَى وَاللَّيلِ إِذا سَجى ، مَا وَدَّعَكَ رَبكَ وَمَا قَلَى ، وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى ، وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى . أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ، وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى ، وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ؟ ! فَأَمَّا اليَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ . وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ ، وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ .

يالله . . إِنَّ الله لَمْ يَقْلُ مُحَمَّداً وَلَمْ يَترُكْهُ : بَلْ تَوَلاَّهُ بِعَطْفِهِ وَشَمِلَهُ بِرَحْمَتِهِ ، وَأَسبَغَ عَلَيْهِ نِعْمَتَهُ .

وَسَكَنَتْ نَفْسُ مُحَمَّدٍ ، وَأُثْلِجَ فُؤَادُهُ ، وَاطْمَأَنَّ قَلْبُهُ ، وَتَبَدَّدَتْ مَخَاوِفُهُ ، وَزَالتْ هَوَاجِسُهُ . وَشَارَكَتْهُ هٰذا كُلَّهُ خَدِيجَةُ حِينَ عَلِمَتْ بِهِ ، فَقَدْ تَحَقَّقَ لَهَا مَا كَانَتْ تُرِيدُهُ لِزَوْجِهَا ، وَوَصَلَ اللهُ لَهُ مَا ظَنَّتْ أَنهُ انْقَطَعَ .

وَتَتَابَعَ نُزُولُ الوَحْيِ عَلَى مُحَمَّدٍ : يُعَلِّمُهُ آياتِ اللهِ ، ويُرْشِدُهُ إِلَى مَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَهُ .

وَعَلَّمَ جِبْرِيلُ مُحَمَّداً الوُضُوءَ ، وَعَلَّمَهُ الصَّلاَةَ : فَقَدْ أَتَى جِبْرِيلُ مُحَمَّداً يَوْماً ، وَهُوَ بِأَعْلَى مَكَّةَ ، وَتَوَضَّأَ ومُحَمَّدٌ يَنْظُرُ إِلَيهِ ، لِيُرِيَهُ كَيْفَ يَتَطَهَّرُ لِلصَّلاَةِ ، فَتَوَضَّأَ بَعْدَهُ كَمَا رآهُ يَتَوَضَّأُ ، ثُمَّ قَامَ وَصَلَّى وَمُحَمَّدٌ يُصَلِّي مِثْلَ صَلاَتِهِ ، ثُمَّ انْصَرَفَ .

جَاءَ مُحَمَّدٌ إِلَى خَدِيجَةَ وَتَوَضَّأَ أَمَامَها كَمَا تَوَضَّأَ أَمَامَهُ جِبْرِيلُ لِيُرِيَها كَيْفَ تَتَطَهَّرُ لِلصَّلاَةِ ، فَتَوَضأَتْ بَعْدَهُ كَمَا تَوَضَّأَ ، ثُمَّ قَامَ وَصَلَّى وَهِيَ تُصَلِّي وَرَاءَهُ ، كَمَا صَلَّى هُوَ وَرَاءَ جِبْرِيلَ .

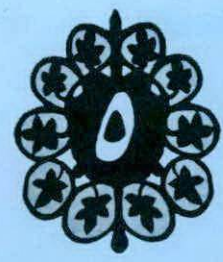

كانَ مُحَمَّدٌ يَكْفُلُ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ، وكانَ عَلِيٌّ يَعِيشُ مَعَهُ ، فَرَأَى مُحَمَّداً يُصَلِّي ، وَرأَى خَدِيجَةُ تُصَلِّي ، رآهُمَا يَرْكَعَانِ وَيَسْجُدَانِ ، وَسَمِعَهُمَا يَتْلُوَانِ آيَاتٍ بيِّناتٍ : تَدْعُو إِلَى الْحَقِّ ، وَتَنْهَى عَنِ الْباطَلِ .

وَوَقَفَ الْفَتَى عَلِيٌّ يَنْظُرُ إِلَيْهِما مُسْتَعْجِباً مِمَّا يَفْعَلانِ : وَكانَ يُحِبُّ مُحَمَّداً ، وَيُؤْمِنُ بِكُلِّ قَوْلٍ يَقُولُهُ مُحَمَّدٌ ، وكُلِّ فِعْلٍ يَفْعَلُهُ ، وَيَتَّخِذُهُ إِماماً يَسِيرُ عَلَى مداهُ .

وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَرَ مِنْهُ قَبلُ هٰذا السُّجُودَ الْخاشِعَ ، وَلَمْ يَسْمَعْ مِنْهُ هٰذا الْقَوْلَ

الوَاعِظَ ، فَتَقَدَّمَ مِنْ مُحَمَّدٍ وَخَدِيجَةَ يَقُولُ : مَا هٰذَا ؟ ! فَأَجَابَ مُحَمَّدٌ : هٰذا دِينُ اللهِ الَّذِى يَأْمُرُ بِهِ ، ويَبْعَثُ بِهِ رُسُلَهُ .

فاستَعْجَبَ عَلِيٌّ وَقَالَ : وَلِمَ تَرْكَعَانِ وَتَسْجُدَانِ ؟ !

قَالَ مُحَمَّدٌ : نَرْكَعُ وَنَسْجُدُ لِلهِ الَّذِى بَعَثَنِى نَبِياً ، وَأَرْسَلَنِى لأَدْعُوَ النَّاسَ إِلَى عِبَادَتِهِ .

قَالَ عَلِيٌّ : هٰذَا شَىْءٌ عَظِيمٌ جَمِيلٌ ، وَهَلْ يَجُوزُ لِمِثْلِى أَنْ يُؤْمِنَ بِمَا آمَنْتَ بِهِ ، وَأَنْ يَتَعَبَّدَ كَمَا تَتَعَبَّدُ ، وأَنْ يُصَلِّى كَمَا تُصَلِّى ؟ !

قَالَ مُحَمَّدٌ : نَعَمْ يَا بْنَ عَمٍّ ، وَأَنَا أَدْعُوكَ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، وَالْكُفْرِ بِاللَّاتِ والْعُزَّى آلِهَةِ قَوْمِكَ .

قَالَ عَلِيٌّ : أَمْهِلْنِى حتَّى أُخْبِرَ أَبِى .

وَقَضَى عَلِيٌّ لَيْلَةً لا يَغْمَضُ لَهُ جَفْنٌ ، يُفَكِّرُ فِيمَا سَمِعَهُ مِنْ مُحَمَّدٍ ، وَفِيمَا رَآهُ مِنْهُ . فَلَمَّا كانَ الصَّباحُ أَسرَعَ إِلَى مُحَمَّدٍ يَقُولُ :

إِنَّنِى أُومِنُ بِكَ وَأَتَّبِعُكَ ، فَلا حَاجَةَ بِى إِلَى أَن أُخْبِرَ أَبِى ، عَلِّمْنِى كَيْفَ

أَرْكَعُ ! ! وَكَيْفَ أَسْجُدُ ! ! وَكَيْفَ أَتْلُو كَلاَمَ اللهِ ! !

عَلَّمَهُ مُحَمَّدٌ الصَّلاَةَ ، وَحَفَّظَهُ مَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مِنَ الآيَاتِ ، وَلَمْ يُشَاهَدْ بَعْدَ ذٰلِكَ مُحَمَّدٌ يُصَلِّى لله إِلَّا وعَلِىٌّ تَابِعُهُ .

ثُمَّ ما لَبِثَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ أَنْ أَسْلَمَ ، وَتَبِعَ مُحَمَّداً وَعَلِيًّا فِيمَا يَفْعَلاَنِ .

فَكَانَ عَلِىٌّ وَزَيْدٌ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ لِمُحَمَّدٍ بَعْدَ خَدِيجَةَ ، وَأَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ .

كَانَا يَرَيَانِ فِى مُحَمَّدٍ مِنْ حِينِ أَنْ لاَزَمَاهُ رُوحاً عَالِيَةً ، وَنَفْساً كَرِيمَةً ، وَيَلْمِسَانِ فِيهِ شَيْئاً غَامِضاً عَظِيماً حَبَّبَهُمَا فِيهِ ، وَرَغَّبَهُمَا فِى جِوَارِهِ ، فَوَضَحَ لَهُمَا مَا أَحَبَّاهُ مِنْ أَجْلِهِ ، وَمَا رَغَّبَهُمَا فِى جِيرَتِهِ ، وَكَأَنَّهُمَا آمَنَا بِهِ قَبْلَ أَنْ يَدْعُوَهُمَا إِلَيْهِ !

ثُمَّ آمَنَ بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ دُونَ تَوَانٍ أَوْ تَرَدُّدٍ صَدِيقُهُ الْحَمِيمُ أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِى قُحَافَةَ التَّيْمِىُّ . كَانَ هُوَ الآخَرُ يُحِبُّ مُحَمَّداً لِصِدْقِهِ وَنَزَاهَتِهِ ، وَيَرْغَبُ فِى عِشْرَتِهِ وَصُحْبَتِهِ ، وَمُحَمَّدٌ يَرْتَاحُ إِلَيْهِ ، وَيُبَادِلُهُ حُبًّا بِحُبٍّ ، وَإِخْلاَصاً

بِإِخْلاَصٍ . فَمَا كَادَ مُحَمَّدٌ يَدْعُوهُ إِلَى الإِسْلاَمِ ، وَيُبَيِّنُ لَهُ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ ، حَتَّى سَارَعَ إِلَى إِعْلاَنِ إِسْلاَمِهِ ، فَقَالَ لِمُحَمَّدٍ أَوَّلَ مَا دَعَاهُ إِلَيْهِ ، وَوَقَفَهُ عَلَى حَقِيقَةِ أَمْرِهِ ، مِنْ غَيْرِ تَرَدُّدٍ وَلا تَفْكِيرٍ :

صَدَقْتَ بِأَبِى أَنْتَ وَأُمِّى ، وَأَهْلُ الصِّدْقِ أَنْتَ . أَنَا أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَأَنَّكَ رَسُولُ اللهِ .

وَسَمِعَتْ خَدِيجَةُ مَقَالَةَ أَبِى بَكْرٍ فَسُرَّتْ بِإِسْلاَمِهِ ، وَلَمْ تَمْلِكْ إِلاَّ أَنْ تَأْتَزِرَ بِخِمَارِهَا ، وَتَخْرُجَ إِلَيْهِ مُهَنِّئَةً وَتَقُولُ :

الْحَمْدُ للهِ الَّذِى هَدَاكَ يَابْنَ أَبِى قُحَافَةَ .

وَكَانَ إِسْلاَمُ أَبِى بَكْرٍ أَكْبَرَ عَوْنٍ لِمُحَمَّدٍ عَلَى دَعْوَتِهِ ، وَأَشَدَّ سَاعِدٍ لَهُ عَلَى تَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ .

كَانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلاً مَأْلَفاً لِقَوْمِهِ مُحَبَّباً سَهْلاً ، وكَانَ أَنْسَبَ قُرَيْشٍ لِقُرَيْشٍ ، وَأَعْلَمَ قُرَيْشٍ بِهَا ، وَبِمَا كَانَ فِيهَا مِنَ خَيْرٍ وَمِنْ شَرٍّ .

كَانَ رَجُلاً تاجراً ، ذا سَعَةٍ ، سَخِيًّا يَبْذُلُ الْمَالَ ، ذَا خُلُقٍ وَمَعْرُوفٍ ،

يَستَشِيرُهُ قَوْمُهُ ، ويَرْتاحُونَ إِلَى مَجْلِسِهِ ، وَكانُوا يأْتُونَهُ وَيأْلَفُونَهُ لِكَثرَةِ مَا فِيهِ مِنَ الأُمُورِ الَّتِى تَجعَلُهُمْ يُقْبِلُونَ عَلَيْهِ ، فَيأْتُونَه لِعِلْمِهِ وَتجَارَتِهِ ، وَحُسْنِ مُجَالَستِهِ .

فَجعَلَ أَبُو بَكْرٍ يَدْعُو إِلَى الإِسْلامِ مَنْ وَثِقَ بِهِ مِنْ قَوْمِهِ ، وَآنَسَ فِيهِ الأَمَانَةَ ، وَرَجَاحَةَ الْعَقْلِ ، مِمَّنْ يَغْشَوْنَ مَجْلِسَهُ . فَتَابَعَهُ عَلَى الإِسْلامِ كَثِيرُونَ ، أَوَّلُهُمْ عُثْمانُ بْنُ عَفَّانَ ، وَالزُّبَيْرُ بْنُ العَوَّامِ ، وَعَبْدُ الرَّحْمٰنِ بْنُ عَوْفٍ ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِى وَقَّاصٍ ، وَطَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ .

ثُمَّ أَسْلَمَ بَعْدَ ذٰلِكَ أَبو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ ، وَالأَرْقَمُ بْنُ أَبِى الأَرقَمِ . ثُمَّ تَتَابَعَ الْمُسْلِمُونَ مِنَ الرِّجالِ والنساءِ ، وَكانَتْ مِنْ بَيْنِ النِّساءِ بَنَاتُ مُحَمَّدٍ ، وَبَنَاتُ أَبِى بَكْرٍ .

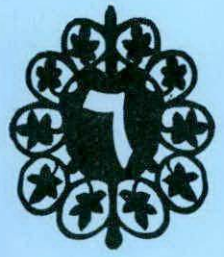

وَتَكاثَرَ الْمُسْلِمُونَ يَتَّبِعُونَ مُحمَّداً ، وَيُعْلِنُونَ إِسْلاَمَهُمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَجْهَرَ بِالدَّعْوَةِ عَلَى مَلأِ قُرَيْشٍ ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى مَا بَعَثَهُ بِهِ رَبُّهُ .

بَلْ كانَ الْمُسْلِمُونَ يُخْفُونَ إِسْلاَمَهُمْ ، وَيُشِيعُونَهُ سِرًّا فِيما بَيْنَهُمْ ، وَبَيْنَ مَنْ يَتَوسَّمُونَ فِيهِمُ الأَمَانَةَ ، وَالْمَيْلَ إِلَى الْحَقِّ ، وَيَسْتَخْفُونَ عَنْ عُيُونِ ذَوِيهِمْ وَالْملإِ مِنْ قَوْمِهِمْ ، وَيَتَخَيَّرُونَ الأَمَاكِنَ الْقَصِيَّةَ فَيَتْلُونَ فِيها آيَاتِ اللهِ وَيُحَفِّظُهَا بَعْضُهُمْ بَعْضاً ، وَيَخْرُجُونَ إِلَى شِعَابِ الْجَبَلِ فى سِرٍّ مِنَ النَّاسِ ، يُؤَدُّونَ الصَّلاَةَ ، وَيَتَعَلَّمُ حَدِيثُهُمْ مِمَّنْ سَبَقَهُ إِلَى تَعَلُّمِهَا .

وابْتَدأَ يَشْعُرُ أهْلُ مَكَّةَ الْمُشْرِكُونَ بِمَا يَفْعَلُ الْمُسْلِمُونَ ، فَتَرَبَّصُوا لَهُمْ يُحَاوِلُونَ الاطِّلاعَ عَلَى سِرِّهِمْ ، وكَشْفِ مَا يُخْفُونَ مِنْ أَمْرِهِمْ ، فَمَا لَبِثُوا أَنِ اطَّلَعُوا عَلَى مَا يُؤَدُّونَ مِنْ صَلاَةٍ ! وَكَشَفُوا مَا يَنْشُدُونَ مِنْ تَسَابِيحَ .

عَرَفُوا أَنَّ مُحَمَّداً يَدْعُو إِلَى دِينِ اللهِ وَحْدَهُ ، وَيَنْهَى عَنْ دِينِ الشِّرْكِ بِاللهِ : دِين قَوْمِهِ ! يَا لَلْعَجَب !

أَمُحَمَّدٌ ، يَتِيمُ أَبِى طَالِبٍ ، يَدَّعِى النُّبُوَّةَ ، ويَحُضُّ النَّاسَ عَلَى تَرْكِ دِينِهِمْ ، وَالتَّنَكُّرِ لِآلِهَتِهِمْ ؟ ! !

أَيَجْسُرُ مُحَمَّدٌ أَنْ يَخرُجَ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ وَدِينِ آبَائِهِ ؟ !

وَكَثُرَ الْجَدَلُ ، وَكَثُرَ اللَّغَطُ . وَكَثُرَ الْعَجَبُ بَيْنَ الْقَوْمِ !

فَفَرِيقٌ رَأَى أَنَّ مُحَمَّداً قَدْ جُنَّ وَلاَشَكَّ ، وَفَرِيقٌ رَأَى أَنهُ قَدْ أُصِيبَ بِدَاءِ حُبِّ الشُّهْرَةِ وَالرَّغبَةِ فى الظُّهُورِ ، وعَمَّا قَرِيبٍ يَخِيبُ أَمَلُهُ ، فَلَمْ يأْبَهُوا لَهُ ، وفَرِيقٌ مَالَ إِلَى هَذَا الدِّينِ الْجَدِيدِ فَسَعَى لِيَطَّلِعُ عَلَيْهِ ، وَيَتَزَوَّدَ مِنْ حِكَمِهِ ، ثُمَّ لاَ يَلبَثُ أَنْ يَتَّبِعَهُ وَيعْتَنِقَهُ .

وَخَرَجَ أَبُو طَالِبٍ يَرَى دِينَ ابْنِ أَخِيهِ الجَدِيدَ !

وَفِى ذَاتِ يَوْمٍ عَثَرَ أَبُو طالب – وَمَعَهُ ابْنُهُ جَعْفَرٌ – عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ يُصَلِّى فِى شِعْبٍ مِنْ شِعابِ مَكَّةَ ، وَكانَ عَلِىٌّ يُصَلِّى مَعَهُ مُسْتَخْفِيًا مِنْ أَبِيهِ أَبِى طالِبٍ وَمِنْ جَمِيعِ أَعْمَامِهِ ، وَسائِرِ قَوْمِهِ . فَقالَ أَبُو طالِبٍ لِمُحَمَّدٍ :

يَا بْنَ أَخِى ، مَا هٰذَا الدِّينُ الَّذِى أَرَاكَ تَدِينُ بِهِ ؟ !

قَالَ : أَىْ عَمِّ ، هٰذَا دِينُ الله ، وَدِينُ مَلائِكَتِهِ ، وَدِينُ رُسُلِهِ ، وَدِينُ أَبِينا إِبراهِيمَ . بَعَثَنِى اللهُ بِهِ رَسُولاً إِلَى الْعِباد ، وَأَنْتَ – أَىْ عَمِّ – أَحَقُّ مَنْ بَذَلْتُ لَهُ النَّصِيحَةَ ، ودَعَوْتُهُ إِلَى الْهُدَى ، وأَحَقُّ مَنْ أجَابَنِى إِلَيهِ .

قَالَ أَبُو طالِبٍ : أَىِ ابْنَ أَخِى ، إِنِّى لا أَسْتَطِيعُ أَنْ أُفَارِقَ دِينَ آبائى وَما كانُوا عَلَيْهِ ، وَلٰكِنْ ، وَالله لا يُخْلَصُ إِلَيْكَ بِشَىْءٍ تَكرَهُهُ ما بَقِيتُ .

ثُمَّ التَفَتَ أَبو طالِبٍ إِلى ابْنِهِ عَلِىٍّ ، وقالَ .

أَىْ بُنَىَّ ، أَتَعْرِفُ الدِّين الَّذِى أَنْتَ عَلَيْهِ ؟

قَالَ : يَا أَبَتِ ، آمَنْتُ بِالله ، وبِرسُولِ اللهِ ، وصَلَّيْتُ مَعَهُ لِلهِ ، وصَدَّقْتُ

ما جَاءَ بِهِ .

قَالَ أبو طالِبٍ ، أَمَا إِنَّهُ لَمْ يَدْعُكَ إِلَّا إلى خَيْرٍ ، فاتَّبِعْهُ .

ثُمَّ قَالَ لِابْنِهِ جعْفَرٍ : يَا بُنَيَّ ، صَلِّ إِلى جَناحِ ابْنِ عَمِّكَ .

لَمْ يُعْلِنْ أَبُو طالِبٍ إِسْلامَهُ لِمُحَمَّدٍ ، وارْتَضى لِوَلَدَيْهِ الإِسْلامَ ، فَهَلْ كَانَ ذٰلِكَ لِحِكْمَةٍ يُخْفِيها ؟ !

هٰذَا مَا سَوْفَ يَكْشِفُ عَنْهُ ما كانَ مِنْهُ لِقُرَيْشٍ ، وَمَا كَانَ مِنْهُ لِمُحَمَّدٍ .

كانَتْ قُرَيْشٌ تَسْخَرُ بِالْمُصَلِّينَ إِذا صَلُّوا ، وتَهْزَأُ بِهِمْ إِذَا رَكَعُوا ، وَتَضْحَكُ مِنْهُمْ إِذا سَجَدُوا . وزَادَ ذٰلِكَ مِنْهُمْ وَكَثُرَ : فاتَّخَذَ مِنْهُ صَعالِيكُهُمْ وَسُفَهاؤُهُمْ مَادَّةَ لَهْوٍ وضَحِكٍ ، فَكَانُوا يَخْرُجُون إلى شِعابِ مَكَّةَ حَيْثُ يُصَلِّى الْمُؤْمِنُونَ صَلاةَ الضُّحَى وَصَلاةَ الْعَصْرِ ، فَيَعِيبُونَهُمْ وَيَتَغَامَزُونَ ، ثُمَّ يَنْفَجِرونَ ضاحِكِينَ ! ! فَكَانَ مِنْ ذَلِكَ أَنِ اشْتَبَكَ الْفَرِيقانِ يَوْماً فى عِراكٍ ، ضَرَبَ فِيهِ سَعْدُ بْنُ أَبِى وَقَّاصٍ أَحَدَ الْمُشْرِكِينَ ، فَشَجَّ رَأْسَهُ ، فَسَالَ مِنْهُ الدَّمُ ، وَكَانَ ذٰلِكَ أَوَّلَ دَمٍ أُرِيقَ فى الإِسْلامِ وَلِلإِسْلامِ .

وَلِكَيْ يَبْعُدَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ شَرِّ الْمُشْرِكِينَ كَانَ مُحَمَّدٌ يَسْتَخْفِي بِأَتْبَاعِهِ فِي دَارِ الأَرْقَمِ بْنِ أَبِي الأَرْقَمِ ، إِذَا ما أَرادَ أَنْ يَتْلُوَ عَلَيْهِمْ قُرْآناً نَزَلَ ، أَوْ يُطْلِعَهُمْ عَلَى وَحْيٍ جَدِيدٍ .

مَضَى عَلَى بَعْثِ مُحَمَّدٍ ثَلاَثُ سِنِينَ ، فَلَمْ يَعُدْ سِرًّا أَنَّ مُحَمَّداً يَدْعُو إِلَى دِينٍ جَدِيدٍ ، وَلَمْ يَعُدْ خَافِياً أَنَّ مُحَمَّداً قَوِيَ وَكَثُرَ أَتْبَاعُهُ ، فَأَمَرَهُ اللهُ أَنْ يَجْهَرَ بِالدَّعْوَةِ ، وَأَنْ يُظْهِرَ مَا يُخْفِي مِنْ أَمْرِهِ . « فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ، وأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ » .

رقم الإيداع	٢٠٠٢/١٦٠٥٤
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-6352-4

٧/٢٠٠٢/٥٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)